

السابق

لجبران خليل جبران

ترجمة
أنطونيوس بشير



4

السالك

أمثاله وأشعاره

جبران خليل جبران

ترجمة

أنطونيوس بشير

[الترجمة العربية الوحيدة التي أقرها جبران]



حیران خلیل حیران

كلمة الناشر

بين يدي القارئ الكريم أحسن ما سطره جبران خليل جبران بدم قلبه ،
فهو القائل : « ليس من يكتب بالخبر كمن يكتب بدم القلب » .

كان جبران يرأسل والدي الشيخ يوسف البستاني في العشرينات ، ولم
يكن جبران في ذلك الوقت قد ذاع صيته وانتشر نتاج فكره في العالم
العربي .

ولكن القلم العربي الذي لا يلحن ولا ينقل الفكر الإنجليزى المكتوب
إلى ترجمة عربية فحسب ، وجد مبيله عند جبران في شخص صديقه
الأرمنديت أنطونيوس بشير الذي عاش في أمريكا أيضا مهاجرا ، لهذا
رأينا جبران يكلف بشيرا بترجمة « النبی » إلى العربية ، ومن ثم ولدت الطبعة
الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٢٦ ، ثم تبع ذلك كتاب « كلمات » ،
و « رمل وزبد » ، و « دمة واهتسامة » ، و « البدائع والطرائف » ،
و « المجنون » ، و « يسوع ابن الإنسان » وغير ذلك مما نسجه جبران
بريشته .

وقد كان الغش التجاري سمة من سمات الناشرين والمترجمين في العالم
العربي ، فظهرت طبعات مزورة لا تشير إلى الناشر الأول أو المترجم
مستكفية بصورة جبران وتأليف جبران خليل جبران . وظهر مترجمون
آخرون وفقهم الله في مساعدهم وجهدهم في سبيل ترجمة أفكار جبران ،

ولكن بقى شيء واحد — لا شك فيه — وهو أن هذه الترجمة للنبي هي الوحيدة التى أقرها جبران وراجعها وبعث بها إلى والدى فى العشرينيات، وكان والدى فى ذلك الوقت يملك متجرا فى درب الجماميز (١) ثلاثة أمتار فى متر واحد!! ولم يطمع جبران فى مال يغرفه من أبى، بل اكتفى ببعض النسخ لتوزيعها على أصدقائه فى المهجر.

هذه هى قصة هذه الطبعة! بقى أن يعرف القارئ كيف أرادت الصهيونية العالمية تهويد جبران خليل جبران ونقله عن عقيدته وعروبه... هذا ما كشف عنه المترجم الأول والوحيد لجبران فى الفصل الأخير من الكتاب...

لقد عاش جبران عربياً ومات عربياً... لقد خدم جبران أهله وعشيرته فى نقل أفكاره إلى لغات العالم. لقد ضنّط جبران روحه وهو يقول: « ليس فكراً أخلفه ورأى، بل قلباً جمّلته جماعتي وجعله عطشاً رقيقاً خفوقاً ». ثم يسترسل فيقول: « كانت أيام كآبتي طويلة ضمن جدران هذه المدينة... وأطول منها كانت ليالى وحدتي وانفرادي، ومن ذا يستطيع أن يفصل عن كآبته ووحدته من غير أن يتألم فى قلبه؟ ».

صلاح الدين البستاني

القاهرة فى أول يناير ١٩٨٥

(١) أحد أحياء القاهرة القديمة المجاور للأزهر الشريف.

أنت سابق نفسك

أنت سابق نفسك يا صاح ، وما الأبراج التي
أقمته في حياتك سوى أساس لذاتك الجبارة .
وهذه الذات في حينها ستكون أساساً لغيرها .
وأنا مثلك سابق نفسي ، لأنّ الظل المنبسط
أمامي عند شروق الشمس سيتقلص تحت قدمي
عند الظهيرة . وسيعقب هذا الشروق شروق آخر
فيحدث ظلاً ثانياً أمامي ، ولكن هذا الظل عينه
سيتقلص تحت قدمي أيضاً في ظهيرة أخرى .
منذ البدء ونحن سابقو نفوسنا ، وسنبقى سابقي
نفسنا إلى الأبد . وليس ما حشدنا ونحشد في

حياتنا سوى بذور نعلها لحقول لم تغلح بعد .
نحن الحقول ونحن الزارعون .. نحن الأثمار ونحن
المستثمرون .

عندما كنت يا صاح فكرة هائمة في الضباب ،
كنت هنالك فكرة هائمة مثلك ، فنشدتك
ونشدتني فكانت من تشوقاتنا الأحلام ، والأحلام
كانت زماناً بلا قيود ، والأحلام كانت فضاء
بلا حدود .

وعندما كنت كلمة صامتة بين شفتي الحياة
المرتعشتين ، كنت أنا مثلك هنالك كلمة صامتة؛
وما تلفظت الحياة بنا حتى برزنا إلى الوجود وقلباننا
يخفقان بتذكريات الأمس ، والحنين إلى الغد .
وما الأمس سوى الموت مطروداً ، ولا الغد سوى
الميلاد مقصوداً .

وها نحن الآن في يدي الله ، فأنت شمسٌ منيرةٌ
في يمينه ، وأنا أرضٌ مستتيرةٌ في يسراه ؛ ولكن
قوتك على الإنارة ليست بأفضل من قوتي على
الاستنارة .

وما نحن الشمس والأرض إلا بداءةٌ لشمس
أعظم ، وأرض أعظم ، وسنبقى بداءةً إلى الأبد .
أنت سابق نفسك أيها الغريب العابرُ بيباب
حديقتي ، وأنا مثلك سابق نفسي على رغم أني
أجلس في أظلال أشجاري وأبدو ساكناً هادئاً .

البُهلول

جاء في قديم الزمان رجلٌ من البادية إلى مدينة
الشرية العظيمة ، وكان بُهلولا خيالياً . ولم يكن
له من متاع سوى ثوبه وعصاه .

فكان يطوف في شوارع المدينة ويتأمل في
هياكلها وأبراجها وقصورها بإعجاب وإجلال ؛
لأن مدينة الشرية كانت غايةً في الجمال . وكان
بين الآونة والأخرى يخاطب العابرين به مستفهماً
عن مدينتهم وغرائبها ، فلم يفهموا لغته كما أنه لم
يفهم لغة أحدٍ منهم .

وعند انتصاف النهار وقف أمام فندق فسيح

الأرجاء بديع الهندسة والإتقان ، وكان الناس
يدخلون إليه ويخرجون منه من غير اعتراض .
فقال البهلول في ذاته : « لاشك أن هذا مزارٌ
مقدس » . ودخل مع الداخلين .

وشدَّ ما كانت حيرته عندما وجد نفسه في بهوٍ
عظيم ، وكبراء القوم من رجال ونساء جالسون إلى
كثير من الموائد الأنيقة يأكلون ويشربون ،
والموسيقيون يشنّفون آذانهم بأطرب العزف
والغناء .

فقال البهلول إذ ذاك في ذاته : « قد ضللت ،
فما هذه بالعبادة التي توهمت ، بل مأدبة أعدّها
الأمير لشعبه تذكّراً لحادث جلل » .
وفى تلك الدقيقة دنا منه رجلٌ ، تُحِيل إليه أنه
عبد الأمير ، وسأله أن يجلس مع الجالسين ؛

فجلس . فقدمت إليه اللحوم والخمور والحلوى
أفخرها وأشهاها ، فأكل هنيئاً وشرب مريئاً .
وعندما بلغ كفافه هم بالانصراف ، ولكنه
ما وصل إلى الباب حتى دنا منه رجلٌ بادن متأنق
اللباس فأوقفه .

فقال البهلول في قلبه : « لاشك أن هذا هو
الأمير بعينه » ، فأنحنى أمامه وحياه باحترام وشكره
بلغة قبيلته .

أما الرجل البادن فخاطبه بلغة المدينة قائلاً له :
« ياسيدي إنك لم تدفع بعدُ ثمن غدائك » .

فلم يفهم البهلول شيئاً ولكنه شكره ثانية من
صميم قلبه . فتأمله الرجل البادن جيداً ، وبعد أن
أمعن النظر في وجهه ملياً أدرك أنه غريب عن
المدينة ، وعرف من ثيابه الرثة أنه فقير الحال وليس

له ما يدفعه ثمن غدائه . فصفق منادياً . فجاء على الفور أربعة من حراس المدينة ومثلوا بين يديه . فقص عليهم قصة البهلول . فألقوا القبض عليه في الحال ومشوا به اثنين اثنين من عن جانيه . أما البهلول فكان يتأمل في ملابسهم المزركشة وهو يكاد يطير فرحاً قائلاً في سره : « لاشك أن هؤلاء من أشراف المدينة » .

فسار الحراس به إلى أن بلغوا دار القضاء فدخلوا إلى قاعة المحاكمة . فرأى البهلول أمامه في صدر تلك القاعة رجلاً جليلاً جالساً على منصة عالية تجلله المهابة ، وتزيده لحيته البيضاء المسترسلة على صدره هيباً ووقاراً . فخيل إليه أنه الملك بعينه ، وطارت نفسه فرحاً لمثوله أمامه . ثم بسط الحراس دعواهم إلى القاضي ، فعين

القاضي محاميين : واحداً يدعى على البهلول
وآخر يتولى الدفاع عنه . فنهض المحاميان الواحد
تلو الآخر وأدلى كل بحججه .

أما البهلول فظن أنهما يرحبان به باسم الملك ،
فامتلاً قلبه بعواطف المنة ومعرفة الجميل للملك
وللأمير على كل ما جرى له .

وعند انتهاء المحاكمة حكم القاضي بما يأتي
على البهلول : « يجب أن تكتب جريمته على
لوحة وتعلق على صدره ، ثم يُركب حصاناً عارياً
ويطاف به في المدينة ويسير المزمرون والمطلبون
أمامه » .

فنفذ الحكم في الحال ، وأركب البهلول
حصاناً عارياً وطيف به في شوارع المدينة وسار
المزمرون والمطلبون أمامه . وكان سكان المدينة

يتراكضون على سماع الأصوات فينظرون إليه وهو
على تلك الحالة ويغربون في الضحك أفراداً
وجماعات . وكان الأولاد يركضون وراءه من
شارع إلى شارع زرافات زرافات .

أما البهلول فكان ينظر إليهم بعينين مشرقتين
فرحاً والدهش أخذ منه مأخذه ، لأنه كان يعتقد أن
اللوحة المعلقة على صدره إنما هي وسام قدمه
الملك له عربون بركته ورضاه عن زيارته ، وأن
ذلك الموكب مامشي إلا احتفاء بحضرته .

وحدث أنه فيما هو راكب والجمع يحشده ،
رأى بينهم بدوياً من قبيلته فاختلج قلبه طرباً وهتف
به بأعلى صوته قائلاً : « بربك يا صاح ! أين نحن
الآن ؟ أليست هذه المدينة التي يسميها شيوخنا
مدينة رغائب القلب ، وشعبها الأريحيون

الفياضون الذين يحتفون بعابر السبيل في
قصورهم ، ويرافقه أمراؤهم ، ويشرف ملكهم
صدره بالنياشين فاتحاً له أبواب مدينته الهابطة من
السماء ؟ » .

فلم يقل البدوي الثاني كلمة قط ، ولكنه تبسّم
وهزّ رأسه .

أما الموكب فاستمرّ في سيره .
وكان وجه البهلول مرتفعاً أبداً ، والنور يفيض
من عينيه .

المحبة

يقولون إن ابن آوى يشرب من الجدول الواحد
الذى يشرب منه الأسد ،
ويقولون إن النسر والشوكة ينقدان الجيفة
الواحدة وهما متفقان متسالمان .
فيأيتها المحبة العادلة ،
يا من كبحت جماح رغائبي بيدك القديرة ،
وحولت مجاعتي وعطشي إلى إباءٍ وشمم ،
لاتأذني للقوى العزوم في أن يأكل الخبز أو
يشرب الخمر ، اللذين يستهويان ذاتي الضعيفة .
ذريتى بالأحرى فأقضى جوعاً ،

بل دعى قلبى يتلهب عطشاً ،
واتركينى أموت وأفنى ، قبل أن أمدّ يدى إلى
قدح لم تملئيه ، أو كأس لم تباركيه .

الملك الناسك

تُخْبِرْت أن فتىً يعيش في غابٍ بين الجبال ، وأنه
كان فيما مضى ملكاً على بلادٍ واسعة الأرجاء في
عبر النهرين . وقيل لى أيضاً إن هذا الفتى قد تخلى
بملىء اختياره عن عرشه وعن أرض أمجاده ، وجاء
ليستوطن القفار .

فقلت في نفسي : « لأسعينَّ إلى ذلك الرجل
سعيّاً وأقف على ما في قلبه من الأسرار ، لأن من
يتنازل عن الملك فهو ولا شك أعظم من المُلْك .
فذهبت في ذلك النهار بعينه إلى الغاب حيثما
كان قاطناً . فوجدته جالساً في ظلال سروة

بيضاء ، وييده قصبة كان ممسكاً بها كأنما هي
 صولجانه . فحييته كما يُحيى الملوك . وبعد أن ردَّ
 التحية التفت إليّ وقال بلطف : « ماعساك تبتغى
 فى هذا الغاب الأعزل يا صاحبى ؟ أجئت تنشد ذاتاً
 ضائعة فى الأظلال الخضراء ، أم هى عودة إلى
 مسقط رأسك عند انقضاء شغل النهار ؟ » .
 فأجبت قائلاً : « إننى مانشدت إلّاك ،
 ولا شافنى إلا الوقوف على ما حدا بك إلى استبدال
 مملكتك الكبيرة بهذه الغابة الحقيمة ؟ » .
 فقال : « وجيزة قصتى ، فقد انطفأت فقايع
 غرورى فجأة . وإليك حكايتى :
 فيما كنت جالساً إلى نافذة فى قصرى ، كان
 وزيرى يتمشى مع سفير أجنبى فى حديقتى .
 وعندما صارا على مقربة من نافذتى سمعت الوزير

يتكلم عن نفسه قائلاً : « أنا مثل الملك أتعطش
للخمرة المغتقة ، وأعشق جميع ضروب
المقامرة ، ويشور بى ثائر الغضب كسيدى
الملك ». ثم توارى الوزير والسفير بين الأشجار .
ولكنهما مالبا أن عادا بعد هنيهة ، وإذا بالوزير
يتكلم عنى فى هذه المرة قائلاً : « إن سيدى الملك
مثلى يُحسن الرماية ويتعشق الألحان ، وهو مثلى
يستحم ثلاثاً فى اليوم » .

وسكت لحظة ثم زاد قائلاً : « فى عشية ذلك
اليوم تركت بلاطى ولاشئ معى سوى عباءتى ،
لأننى لم أشأ بعد ذلك أن أكون ملكاً على قوم
يدعون نقائصى لأنفسهم ، ويعزون فضائلهم
إلى » .

فقلت له : « ما أغرب قصتك ، وما أعجب
أمرك ! »

فأجابني قائلاً : « ليس هنالك من غرابسة
يا صاحبي ، فقد قرعت أبواب سكينتي طامعاً منها
بالكثير ، فلم يكن لك منها سوى اليسير . بربك
قل لى مَنْ لا يستبدل مملكةً بغابٍ تترنم فيه
الفصول ، وترقص طروبةً أبداً ؟ كثيرون هم الذين
تركوا ممالكهم ليستبدلوها بأدنى مراتب الوحدة ،
والتمتع بحياة العزلة السعيدة . وكم هنالك من
نسور هبطت من جوها الأعلى لتعيش مع المناجذ
فى أنفاقها الصامتة ، فتتفهم أسرار الغبراء . بل
ما أكثر الذين يعتزلون مملكة الأحلام لكى
لا يظهروا للناس أنهم بعيدون عمن لأحلام فى
نفوسهم ، والذين يعتزلون مملكة العرى ساترين

عُرية نفوسهم ، حتى لا يستحي الأحرار من النظر
إلى الحق عارياً والتأمل فى الجمال سافراً . وأعظم
من هؤلاء جميعهم ، ذاك الذى يعتزل مملكة
الحزن لكى لا يظهر للناس معجباً مفاخرأ
بكآبته ..

ثم نهض متوكفاً على قصبته وقال : « ارجع
الآن إلى المدينة العظمى ، وقف بأبوابها مراقباً
جميع الداخلين إليها والخارجين منها . واعن بأن
تعجد الرجل الذى زعيم أنه وُلِدَ ملكاً فهو بدون
مملكة ؛ والرجل الذى زعيم أنه مسودّ بجسده فهو
سائد بروحه — ولكنه لا يدري بذلك ولا رعاياه
يدرون بسيادته — والرجل الذى يبدو للعيان
حاكماً ولكنه بالحقيقة عبد لعبيد عبيده » .
وبعد أن فرغ من كلامه نظر إلى فلاحته لى منه

ابتسامة خلبتها الف فجر وفجر .
ثم تحوّل عني متغلغلاً في قلب الغاب .
أما أنا فرجعت إلى المدينة ، ووقفت بأبوابها
أراقب العابرين بي على نحو ما قال لى . وما أكثر
الملوك الذين مرت أظلالهم فوقى ، منذ ذلك اليوم
حتى الساعة ، وما أقل الرعايا الذين مرّ فوقهم
ظلى .

بنت الأسد

وقف أربعة عبيد يُروّحون بمراوحهم للملكة
حيزبون ، كانت نائمة على عرشها تغطّ غطيظاً
غليظاً . وكان في حضن الملكة هرة متكئة تموء
وهي تنظر إلى العبيد نظرة كره وازدراء .

فقال العبدُ الأول لرفقائه : « ما أبشع هذه
الحيزبون نائمة ، انظروا كيف تراخت شفتاها ،
وهي تصعد أنفاسها كأنما الشيطان آخذ
بخناقها » .

فموت الهرة قائلة : « إن بشاعتها في رقدتها

ليست جزءاً من بشاعتكم في عبوديتكم
المستيقظة » .

ثم قال العبد الثانى: « ومن الغريب أن النوم لم
يلطف ملامح وجهها بل زادها تجعداً ، فهي
ولا شك حالمة حلماً شريراً راعبا » .
فموت الهرة قائلة لهم : « حبذا لو تنامون أنتم
وتحلمون بحريتكم » .

فقال العبد الثالث لرفقائه أيضاً : « يلوح لى أنها
ترى فى منامها موكب جميع ضحاياها الذين
قتلتهم ظلماً وعدواناً » .
فموت الهرة قائلة : « نعم فهي ترى مواكب
أجدادكم وأحفادكم » .

ثم قال العبد الرابع : « ما أغباكم تتحدثون عن
هذه الملكة وهي نائمة ، وماذا يجديكم الحديث

نفعاً أو يجديني ؟ ألعنه يخفف عني نصبي في
وقوفي وعنائى في ترويحى لها ؟ » .

فقلت الهرة وهى تموء : « أجل ، إنكم
ستروحون إلى دهر الداهرين ، لأنه كما على
الأرض كذلك فى السماء » .

وفى تلك اللحظة تحركت الملكة فى نومها
فسقط تاجها على الأرض . فقال واحد من العبيد :
« إن فى ذلك لشؤماً ! » .

فموت الهرة وقالت : « مصائب قوم عند قوم
فوائد » .

فقال العبد الثانى : « ماذا يحلّ بنا إذا أفاقت
الآن من نومها ورأت تاجها ساقطاً على الأرض .
والله إنها تذبحننا جميعنا ! » .

فموت الهرة قائلة : « قد كانت تذبحكم منذ

ميلادكم أيها الأغبياء وأنتم لا تعلمون » .
وقال العبدُ الثالثُ : « إنها ولاشك تذبحن ،
وتعتبر أنها بعملها هذا إنما تقرب عبادة لآلهتها » .
فموت الهرة قائلةً : « لا يُضحى للآلهة
إلا الضعفاء » .

أما العبدُ الرابع فأسكت رفقاءه عن الكلام ،
والتقط التاج بتأني ووضع على رأس الملكة من غير
أن يوقظها .

فموت الهرة وقالت بصوت عال : « الحق
أقول لكم : إنه لا يلتقط التيجان المدحرجة سوى
العبيد » .

وبعد هنيهة استيقظت الملكة وتلفتت حوالها
متثابرةً ، ثم قالت لعبيدها : « يخيّل إليّ أنني حلمت
بأنى رأيت أربع حشرات يطاردهما عقرب ، حول

جذع سندیانة جبارة . قبحه الله من حلم
مزعج ا ! .

وأطبقت عينيها فنامت ثانية بعد أن ملأت القاعة
بغطيتها . فطلق العبيد الأربعة يروحون لها على
جاري عادتهم .

أما الهرة فموت قائلة لهم : « رّوحوا رّوحوا
أيها العميان والأغبياء ، فما أنتم تروحون إلا ناراً
تلتهم وجودكم ! » .

القديس

زرت فى حدائتى قديساً فى صومعته الهادئة
القائمة بين التلال ؛ وفيما كنا نبحت ماهية
الفضيلة ، أطل علينا لصٌّ وهو يتعرج على الجانبين
فوق الروابي والتعب قد أعياه . وعندما وصل إلى
الصومعة جثا على ركبتيه أمام القديس وقال له :
« أيها القديس الشفيق ، قد جئتُك طالباً تعزيةً ، فإن
آثامى قد تعالت فوق رأسى » .

فأجابه القديس قائلاً : « يا ابنى ، إن آثامى أنا
أيضاً قد تعالت فوق رأسى » .
فقال له اللص : « عفوك ياسيدى ، فأنا سارق

وملء عينيه دهشةً وغرابة ، ومضى من غير أن ينبث
بشفة .

أما أنا فكنت صامتاً إلى تلك الدقيقة ، فالتفت آنئذ
إلى القديس وسألته قائلاً : « ما دعاك إلى أن تنسب
لنفسك شروراً لم ترتكبها قط يا سيدي ؟ ألا ترى
أن هذا الرجل قد مضى ولم يعد بعد من المصدقين
بدعوتك ، والمؤمنين بشارتك ؟ » .

فأجاب القديس وقال : « أجل يا بني فإنك
بالصواب حكمت بأنه لم يعد من المصدقين
بدعوتي ، ولكن الحق أقول لك إنه قد انصرف
والعزاء يملأ فؤاده » .

وفى تلك اللحظة سمعنا اللص يغنى من بعيد ،
وكانت الأودية ترددُ صدى صوته الممتلئ بالمسرة
والتعزية .

الطمع

رأيت في جولاني في الأرض وحشاً على جزيرة
جرداء ، له رأس بشرى وحوافر من حديد .
وكان يأكل من الأرض ويشرب من البحر
بلا انقطاع . فوقفت أراقبه زحاً ، ثم دنوتُ منه
وسألتُهُ قائلاً : « ألم تبلغ كفافك بعد ؟ أليس
لجوعك من شبع أو لظمئك من ارتواء ؟ » .
فأجابني وقال : « نعم ، نعم ، قد بلغت
كفافي ، بل قد مللت الأكل والشرب ، ولكنني
أخاف أن لا تبقى إلى غد أرض لأكل منها ، وبحر
لأرتوي من مائه » .

الذات العظمى

حدث بعد تتويج نُفسِيَعْل ملك جبيل أنه
انصرف إلى مقصورته ، وهى الغرفة التى بناها له
عرافو الجبل النساك . فنزع تاجه وخلع برفيره
ووقف فى وسط المقصورة مفكراً بعظمته المتناهية
كمملك جبيل الواسع السلطان فى ذلك الزمان .
وكان فى صدر تلك المقصورة مرآة مفضضة
الأطار أهدتها إليه أمه ، فالتفت إليها بغتة وإذا برجل
عارٍ قد خرج منها وتقدم إليه .
فأخذ الرعب بمجامع قلبه وصرخ بالرجل
قائلاً : « ماذا تريد أيها الرجل ؟ » .

فأجابه الرجل وقال : « أودّ شيئاً واحداً أيها الملك ، وهو أن تخبرنى لماذا توجوك ملكاً على هذه البلاد ؟ » .

فقال له الملك : « قد توجونى مليكاً عليهم لأننى أنبل رجل بينهم » .
فقال له الرجل : « والله لو كنت أنبل مما أنت لما قبلت الملك » .

فأجابه الملك : « بل إنما توجونى لأننى أشدهم بأساً وقدرة » .

فقال له الرجل : « لو كنت بالحقيقة أشدهم بأساً ، لما قبلت أن تكون مليكاً عليهم » .

فقال له الملك : « ألا إنما توجنى شعبى لأننى أوفرهم حكمة » .

فأجابه الرجل قائلاً : « والله لو كنت أوفر

حكمة مما أنت الآن ، لما اخترت أن تكون ملكاً .

فسقط الملك حينئذ على الأرض وبكى بكاءً مرّاً .

أما الرجل العارى فكان ينظر إليه بشفقة وحنان ، آسفاً على جهله وغروره . ثم تناول تاج الملك المتدحرج على الأرض ووضعه بلطف على رأسه المنحنى ، وعاد فدخل المرأة كما خرج وهو ينظر إلى الملك برقة ولهفة .

أما الملك فنهض بغتة إلى المرأة وتأملها جيداً ، فلم يرَ هنالك أحداً إلاه وتاجه على رأسه .

الحربُ والأمم الصغيرة

كان في أحد المروج نعجة وحملٌ يرعيان .
وكان فوقهما في الجو نسرٌ يحوم ناظراً إلى الحمل
بعين جائعة يبغي افتراسه . وفيما هو يهبط بالهبوط
لاقتناص فريسته ، جاء نسرٌ آخر وبدأ يرفرف فوق
النعجة وصغيرها وفي أعماقه جشع زميله .
فتلاقيا وتقاتلا حتى ملأ صراخهما الوحش
أطراف الفضاء .

فرفعت النعجة نظرها إليهما منذهلةً ، والتفتت
إلى حملها وقالت له : « تأمل يا ولدي ، ما أغرب
قتال هذين الطائرين الكريمين ! أو ليس من العار

عليهما أن يتقاتلا وهذا الجو الواسع كاف لكليهما
ليعيشا متسالمين ؟ ولكن صلّ يا صغيرى ، صلّ
فى قلبك إلى الله لكى يرسل سلاماً إلى أخويك
المجنّحين . »

فصلى الحمل من أعماق قلبه ا

الناقدون

فى عشية أحد الأيام كان المسافر راكباً حصانه
وسائراً إلى الساحل . فوصل فى طريقه إلى فندق .
فترجل عن حصانه وربطه إلى شجرة أمام الباب ،
لأنه كان واثقاً بالليل وبالناس شأن أقرانه المسافرين
إلى السواحل . وبعد ذلك دخل إلى الفندق مع
الداخلين .

وعند انتصاف الليل كان جميع من فى الفندق
نياماً ، فجاء لصٌ وسرق حصان المسافر فلم يدر به
أحد .

وفى الصباح نهض المسافر من نومه وجاء على

الفور إلى حيث ربط حصانه فلم يجده .
وبعد أن فتش عنه عرف أن لصاً سرقه في تلك
الليلة ، فتأثر كثيراً على فقد حصانه ولكنه حزن
بالأكثر على أن بين الناس من يُغريه الشر فيعمد إلى
السرقه .

وعندما عرف رفاقؤه المسافرين بما جرى له ،
تجمعوا حواليه وبدأوا ينحون عليه باللائمة معنفين
إياه .

فقال له الأول : « ماأحمقك أيها الرجل !
لماذا ربطت حصانك خارج الإصطبل ؟ » .
ثم قال له الثانى : « إننى أستغرب كيف أنك لم
تحجل الحصان عندما ربطته . فما أوفر
جهلك ! » .

فقال الثالث لرفيقه : « إن السفر إلى البحر

على ظهور الخيول غباوةً من أساسه .
وقال الرابع : « أما أنا فأعتقد أنه لا يقتنى
الخيول إلا كل بليد بطيء الخطى » .
فدهش المسافر لبلاغتهم وفصاحتهم فى الوعظ
والإرشاد بعد فوات الأوان . ثم قال لهم وهو يتميز
غيباً : « أيها الأصحاب ، عندما سُرِق حصانى
جاءتكم الفصاحة عفواً فأسرعتم الواحد تلو الآخر
تعددون هفواتى وزلاتى ، ولكن يدهشنى كيف
أنكم مع ما أوتيتم من قوة البيان ، لم يقل أحد منكم
كلمة عمن سرق الحصان ! » .

الشعراء

كان أربعة من الشعراء جالسين إلى خوان ،
وكان على الخوان إناءً من الخمر .

فقال الشاعر الأول : « يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنِّي أَرَى عِيبَ
هَذَا الْخَمْرِ مَرْفُوعاً فِي الْفُضَاءِ ، كَسَحَابَةٍ مِنَ الطُّيُورِ
فِي غَايِبٍ مَسْحُورٍ » .

فرفع الشاعر الثاني رأسه وقال : « أَمَا أَنَا فَإِنِّي
أَسْمَعُ بِأُذُنِي الْبَاطِنَةَ هَذِهِ الطُّيُورُ تَغْرُدُ ، فَتَأْخُذُ
أَلْحَانَهَا بِمَجَامِعِ قَلْبِي فَتَأْسِرُهُ كَمَا تَأْسِرُ الزَّنْبَقَةَ
النَّحْلَةُ بَيْنَ وَرَيْقَاتِهَا » .

فأغمض الشاعر الثالث عينيه ورفع ذراعَهُ وقال :
« أَمَا أَنَا فَإِنِّي أَكَادُ أَلَامِسَهَا بِيَدِي ، وَأَشْعُرُ بِخَفِيفِ

أجنحتها يهبُّ في وجهي كأنه لهاثُ جنية نائمة .
 فنهض الشاعر الرابع إذ ذاك ورفع الإناء بيديه
 وقال : « عفوكم أيها الاخوان ! فإنني شحيح
 البصر ثقيل السمع قليل اللمس . فليس في طاقتي
 أن أرى عبير هذه الخمرة ، ولا أن أسمع غنائها ،
 ولا أن أشعر برفرقة أجنحتها . أواه ! إنني لا أشعر
 بغير الخمرة ذاتها ، ولذلك يجب أن أشربها لتوقظ
 حواسي الخاملة وتشعل روحي بنار بركتكم العلوية
 ووحىكم الطهور » .

ثم وضع إناء الخمر على شفثيه وأتى على آخر
 نقطة فيه .

أما الشعراء الثلاثة رفاقؤه فكانوا ينظرون إليه
 بدهشة ، فاتحين أشداقهم وفي عيونهم غلَّةٌ
 لا تروى لهبتها ، وبُغضةٌ لا تخمدُ حدتها .

دَوَّارَةُ الرِّيحِ

قالت دَوَّارَةُ الرِّيحِ للرِّيحِ : « قَبِّحْ لِي اللهُ مَا أَثْقَلَكَ
وَمَا أَمْلَكَ ! أليس في وسعِكَ أَنْ تهبِّي في وجهه غير
وجهي ؟ أمْ أَلَا تعلمين أَنَّكَ بعملِكَ هذا إنما
تعكرين صفو ثباتي الذي أعطانيه اللهُ ؟ » .
فلم تجب الرِّيحُ بكلمة قط ، ولكنها ضحكت
في الفضاء .

ملك أردوسة

مثّل شيوخ مدينة أردوسة مرة في حضرة
الملك ، والتمسوا منه أمراً يقضى بمنع المسكرات
في مدينتهم .

فلم يجب الملك سؤالهم ، بل ولّاهم ظهره
وتركهم ومضى ضاحكاً منهم في ذاته .
فانصرف الشيوخ من حضرته قانطين .

ولما بلغوا باب القصر رأوا وزير الملك ، وكان
هذا الوزير داهيةً فلحظ اضطرابهم وعرف قصتهم .
فقال لهم : « أواه أيها الأصحاب فإن الحظ لم
يسعدكم ، لأنكم لو أتيتم إلينا عندما يكون ملكنا
سكران لكنتم حصلتم في الحال على جميع
ما تطلبون ! » .

طائر إيماني

من أعماق قلبي هبّ طائرٌ وضعّد مخلّقاً في
الفضاء. وكان كلما حلّق في الجوّ أكثر فأكثر يزدادُ
كبراً فكبراً . فبدأ أولاً كالخطاف ، ثم صار
كالقبرة ، فكالنسر ، إلى أن أصبح كسحابة الربيع
اتساعاً فملاً السماوات المرصعة بالنجوم .
من أعماق قلبي هبّ طائرٌ وحلّق في الفضاء ،
وكان يزداد حجمه كلما طار .
ومع ذلك فإنه ظل ساكناً في أعماق قلبي .

* * *

ويا إيماني ، يا معرفتي الجامحة القديرة ، كيف
أبلغ سموّك فأرى وإياك ذات الإنسان الفضلي
المرسومة على أديم السماء ؟

كيف أحوّل هذا البحر الذى فى أعماق نفسى إلى
ضباب كثيف ، وأهيم وإياك فى فضاء اللانهاية ؟
أو هل يستطيع السجين فى ظلمات الهيكل أن
يرى قباب الهيكل المذهبة ؟
أم هل للنواة أن تتمدد فتغلف الثمر كما كان
يغلفها من ذى قبل ؟

أجل ، يا إيمانى الحليم ! أجل فإننى مقيد
بالسلاسل الحديدية فى غيايات هذا السجن
المحدود تفصلنى عنك هذه الحواجز المصنوعة
من اللحم والعظم ، وليس لى أن أطير معك الآن
إلى عالم اللاحدود .

يبد أنك من قلبى تنبثق محلّقاً فى الفضاء
الوسيع ، وأنت لا تزال قاطناً فى أعماق قلبى
الوجيع ، وإنى بذلك لراض مستسلم قنوع .

الخلافات

حدث عندما كانت ملكة عيشانسا في فراش مخاضها ، والملك وعيون بلاطه يترقبون نجاتها من آلامها الشديدة وهم جالسون على أحر من الجمر في قاعة الثيران المجنحة^(١) ، أنه دخل عليهم فجأة رسول مستعجل وركع على قدمي الملك وقال : « أيها الملك العظيم ، إنني أحمل لكم بشائر الفرح وللمملكة ولعبيد الملك أجمعين ، وذلك أن محراب الجائر عدوك اللدود

(١) كان عند قدماء الآشوريين إله له رأس إنسان وجسم ثور وأجنحة طائر ، وكانوا يرمزون برأسه عن الفكر ، وبجسمه عن العزم ، وبأجنحته عن الخيال . وهذا ما عناه المؤلف بقوله « قاعة الثيران المجنحة » .

ملك البترون قد قضى نحبه » .

فلما سمع الملك وكبار رجال دولته هذه
البشرى ، نهضوا منتصبين على أقدامهم وهللوا
فرحين . لأنه لو طال أجل محراب الجبار سنة واحدة
لغزا أرض عيشانا ، وقاد سكانها عبيداً إلى بلاده .
وفى تلك اللحظة دخل طبيب البلاط إلى قاعة
الثيران المجنحة ودخلت وراءه قابلة الملكة .
فانحنى الطبيب باحترام للملك وقال له : « ليعش
سيدي الملك إلى الأبد ، فها قد رزقك الله طفلاً
ذكراً سيخلفك على العرش ويخلد حكمك على
شعوب عيشانا عديد السنين ! » .
فتهلل الملك وطارت روحه فرحاً ، لأنه في
اللحظة الواحدة هلك عدوه وتأصلت الخلافة في
نسله .

وكان في مدينة عيشانا في ذلك العهد نبىٌ
حقٌ ، ولكنه كان فتى جرىء القلب باسل الروح .
فأمر الملك أن يحضر النبىُّ بين يديه في تلك
الليلة ، فأحضر في الحال .

فقال له الملك : « تنبأ أيها النبىُّ وقل لنا كيف
سيكون مستقبل ابنى الذى وُلد الآن للمملكة ؟ » .
فأجابه النبىُّ على الفور قائلاً : « أصغ أيها
الملك ، فأنبئك الصدق عن مستقبل ابنك الذى وُلد
لك اليوم . فإن روح عدوك — عدوك اللدود الملك
محراب — الذى مات في مساء أمس لم تلبث على
متن الأرياح سوى ليلة واحدة ، وقد هبطت إلى
الأرض ثانية تطلب جسداً تأوى إليه فلم ترَ أفضل من
جسد ابنك هذا الذى ولد لك اليوم فتقمصته » .

فاستشاط الملك غيظاً ، واستلّ سيفه وقطع
رأس النبيّ بيده والزبد يخرج من فمه غضباً .
وها قد مرت الأيام وتصرمت حبال السنين على
تلك الحادثة ، وحكماء عيشانا يسرون واحدهم
للآخر قائلين : « أما قيل لنا في القدم وأثبتت الأيام
ذلك المقول ، إن عيشانا يحكمها عدوها ؟ » .

المعرفة ونصف المعرفة

جلس أربع ضفادع على قرمة حطب عائمة على
حافة نهر كبير . فجاءت موجة هوجاء واختلطت
القرمة إلى وسط النهر ، فحملتها المياه . وسارت
بها ببطء مع مجرى النهر . فرقص الضفادع فرحاً
بهذه السباحة اللطيفة فوق المياه ، لأنه لم يسبق
لهنّ أن أبحرن من ذى قبل .

وبعد هنيهة صرخت الضفدعة الأولى قائلةً :
« يالها من قرمة عجيبة غريبة ! تأملن أيتها الرفيقات
كيف تسير مثل سائر الأحياء . والله إننى لم أسمع
قط بمثلها ! » .

فأجابتها الضفدعة الثانية وقالت : « إن هذه القرمة لا تمشى ولا تتحرك أيتها الصديقة ، وهى ليست عجيبة غريبة كما توهمت . ولكن مياه النهر المنحدرة بطبيعتها إلى البحر تحمل هذه القرمة معها ، وتحملنا نحن أيضاً بانحدارها . »

فقالت الضفدعة الثالثة : « لالعمرى فقد أخطأتما أيتها الرفيقتان فى خيالكما الغريب ، فإن القرمة لا تتحرك والنهر أيضاً لا يتحرك مثلها ، وإنما الحقيقة أن فكرنا هو المتحرك فينا وهو الذى يقودنا إلى الاعتقاد بحركة الاجسام الجامدة » .

فتناظر الضفادع الثلاث فى ما هو المتحرك بالحقيقة . وحمى وطيس الجدل وعلا الصراخ بينهم ولم يقررن على رأى واحد .

ثم التفتن إلى الضفدعة الرابعة ، التى كانت إلى

تلك الساعة هادئة صامتة تصغى إليهن بانتباه شديد ، وسألنها رأيها في الموضوع .
 فقالت لهنّ : « كلكن محقّات أيتها الرفيقات ،
 ولا واحدة منكنّ على ضلال ! فإن الحركة كائنة
 في القرمة وفي النهر وفي فكرنا في وقت واحد » .
 فلم يرق لهن ذلك الكلام ، لأن كل واحدة
 منهنّ كانت تعتقد أنها وحدها المصيبة وأن
 رفيقاتها لفي ضلال مبين .
 وما أغرب ما حدث بعد ذلك : فإن الضفادع
 الثلاث تسالمن بعد العداء ، وتجمعن فرممين
 بالضفدعة الرابعة من على القرمة إلى النهر .

الصحيفة البيضاء

قالت صحيفة ورق بيضاء كالثلج : « قد بُرئت
نقية طاهرة ، وسأظل نقية إلى الأبد . وإننى لأؤثر
أن أحرق وأتحول إلى رماد أبيض ، من أن آذن
للظلمة فتدنو منى ، وللأقذار فتلامسنى » .
فسمعت قنينة الحبر قولها وضجبت فى قلبها
القاتم المظلم ، ولكنها خافت ولم تدن منها .
وسمعتها الأقلام أيضاً على اختلاف ألوانها ولم
يقربوها قط .

وهكذا ظلت صحيفة الورق البيضاء كالثلج —
نقية طاهرة — ولكن فارغة !

العالمُ والشاعر

قالت الحية للحسون : « ما أجمل طيرانك أيها
الحسون ، ولكن حبذا لو انك تستطيع أن تنسلّ
إلى ثقوب الأرض وأوكارها حيث تختلج عصارة
الحياة في هدوءٍ وسكون » .

فأجابها الحسون وقال : « إى وربى . إنك
واسعة المعرفة بعيدتها ، بل أنت أحكم جميع
المخلوقات . ولكن حبذا لو انك تطيرين » .
فقالت الحية كأنها لم تسمع شيئاً : « مسكين
أنت أيها الحسون ، فإنك لا تستطيع أن تبصر
أسرار العمق مثلى ، ولا تقدر أن تتخطر فى خزائن

الممالك الخفية فترى أسرارها ومحتوياتها . أما أنا
فلا أبعد بك ، فقد كنتُ في الأمس متكئة في
كهف من الياقوت الأحمر أشبه بقلب رمانة
ناضجة ، وأضال الأشعة تحولها إلى وردة من
نور . فمن أعطى سواى فى هذا العالم أن يرى مثل
هذه الغرائب ؟ » .

فقال لها الحسون : « بالصواب قد حكمتِ
أيتها الحكيمة ، فلا أحد إلّاك يستطيع أن يفترش
ماتبلور من تذكارات العصور وآثار الدهور .
ولكن وأسفاه فإنك لا تغردين » .

فقالت الحية : « إنى أعرف نباتاً تمتد جذوره
إلى أحشاء الأرض . وكل من يأكل من تلك
الجذور يضير أجمل من عشتروت وأبهى » .
فأجابها الحسون قائلاً : « لا أحد . لا أحد » .

إلّاكِ قد اهتدى إلى حسر القناع عن فكر الأرض
السحرى . ولكن وأسفاه فإنكِ لا تطيرين » .
فقالت الحية : « وأعرف جدولاً أرجوانياً
يجرى تحت جبل عظيم . وكل من يشرب من
ذلك الجدول يصير خالداً خلود الآلهة . وليس بين
الطير أو الحيوان من اهتدى إلى ذلك الجدول
سواى » .

فأجاب الحسون وقال : « بلى والله ، فإن فى
منالك أن تكونى خالدةً مثل الآلهة لو شئت . ولكن
وأسفاه ! فإنكِ لا تغردين » .

فقالت الحية : « وأعرف هيكلاً مظلوماً تحت
تراب الأرض لم يهتد إليه باحث أو منقبّ بعد ،
أزوره مرةً فى الشهر ، وهو من بناء جبابرة الأزمنة
الغابرة . وقد نُقشت على جدرانهِ أسرار جميع

الأزمة والأمكنة ، وكل من يقرأها ويفهمها
يوازي الآلهة في العقل والمعرفة » .

فأجابها الحسون قائلا : « بلى ، أيتها الحكيمة
العزيزة . فإنك لو شئت لاستطعت أن تكتنفي بلى
جسدك جميع معارف الأجيال . ولكنك وأسفاه
لا تقدرين أن تطيري » .

فأشمازت الحية إذ ذاك من حديثه ، وارتدت
عنه إلى وكرها وهي تبربر في ذاتها قائلة : « قبحه
الله من غريد فارغ الرأس ! » .

أما الحسون فطار وهو يغنى بأعلى صوته قائلاً :
« وأسفاه إنك لا تغردين ! وأسفاه ! وأسفاه !
يا حكيمة فإنك لا تطيرين » .

الأثمان

كان رجل يحفر فى حقله . وفيما هو يحفر عثر
على تمثال بديع من المرمر الجميل ، فأخذه ومضى
به إلى رجل. كان شديد الولع بالآثار والعاديات
وعرضه عليه . فاشتراه منه بأبهظ الأثمان . ومضى
كل منهما فى سبيله .

وبينما كان البائع راجعاً إلى بيته كان يفكر فى
ذاته قائلاً : « ما أكثر ما فى هذا المال من القوة
والحياة ! إنه بالحقيقة ليدهشنى كيف أن رجلاً
عاقلاً ينفق مالهذا مقداره لقاء صخر أصم فاقد

الحركة ، كان مدفوناً في الأرض منذ ألف سنة ولم
يحلم به أحد ؟ » .

وفي الساعة عينها كان المشتري يتأمل في
التمثال مفكراً وقائلاً في ذاته : « بورك بما فيك من
جمال ! بل بورك بما فيك من حياة ! حلم أية نفس
علوية أنت ؟ هذه بالحقيقة نضارة أعطيتها من نوم
ألف سنة في سكينة الأرض ! إني والله لا أفهم
كيف يمكن للإنسان أن يبيع مثل هذه الطرفة
النادرة بمال جامد زائل ؟ » .

البحار الأخرى

قالت سمكة لأختها : « يوجد فوق بحرنا هذا بحر آخر ، وفيه مخلوقات متنوعة تعيش وتسبح هنالك كما نعيش نحن ههنا ونسبح » .
فأجابتها أختها وقالت : « تلك أوهام ! تلك أوهام ! ألا تعلمين أيتها العزيزة أن كل مخلوق يترك بحرنا قيد قيروط واحد ويبقى خارجاً عنه يموت في الحال ؟ إذن ، فما هي حجتك على وجود أحياء أخرى في بحار أخرى » .

التوبة

دخل رجلٌ في ليلة ظلماء إلى حديقة جاره
فسرق أكبر بطيخة وصلت إليها يده ، وحملها
وجاء بها إلى بيته .
وعندما كسرها وجد أنها عجاء لم تبلغ بعد
نموها .
فتحرك ضميره في داخله إذ ذاك وأوسعه
تونيباً .
فندم على أنه سرق البطيخة .

المحتضر والشوكة

مهلاً ولا تلجى يا أختاه ، مهلاً !
فعما قريب أترك لك هذه البقية التلفة ،
فإنها تستفرغ صبرك بطول نزعها .
إننى أضنُّ بجوعك أن يترقب تصرم هذه
الهنّيهات : لأن هذه القيود وإن كانت من اللهات
فإن كسرهما لعسير . إن رغبتى فى الموت ، وهى
أبعد رغائى ، مقيدةٌ بسلاسل رغبتى فى الحياة
وهى أدنى رغائى .
عفوك أيتها الرفيقة ، فإننى متماهلاً بطيء .
هى الذكرى تمسك بروحى فتعيد إليها

تذكارات مضت : فتريتها مواكب الأيام الماضية ،
ومرأى شبابٍ غابر قضيته فى حلم ،
وتشخص أمامى وجهاً يأمرُ أجفانى بالآ
تغمض ،

وتعيد إلى مسمعى صوتاً لا يزال صده متردداً
فى أذنى ،
ويداً تلامس يدى ولا أراها .

* * *

عفوك أيتها الرفيقة فقد طال انتظارك .
ولكن ها قد دنت الساعة وكل شىء عابر زائل :
الوجه والعيون واليد والضباب الذى جاء بها ،
قد حُلَّت العقدة ،
قد تقطع الحبل ،

وذلك الذى ليس بالطعام ولا بالشراب قد تنحى
وراح .

تقدمى يارفيقتى الجائعة ، تقدمى فقد أعدت
المائدة ،

والطعام حقيرٌ يسير يُقدَّم بمحبة ..
هلمى واغرزى منقارك فى جنبى الأيسر ،
وأخرجى من بين قضبان قفصه هذا الطائر
الأصفر ،

الذى لن يُرفرف جناحاه فيما بعد ،
بربك خذيه وحلقى به فى رحاب الفضاء .
هلمى ، هلمى إلى ياصديقتى ،
فأنا مُضيفك الليلة وأنت ضيفى العزيز فأهلاً
ومرحباً .

وراء وحدتى

إن وراء وحدتى وحدة أبعد وأقصى ،
وما انفرادى للمعتزل فيها سوى ساحة تغصُّ
بالمزدحمين ،

وما سكونى للساكنين فيها سوى جلبة
وضجيج .

إننى حدثُ مضطربٌ هائمٌ بعدُ فكيف أبلغ تلك
الوحدة القاصية ؟

إن ألحان ذلك الوادى تتموج فى أذنى ،
وأظلاله السوداء تحجُبُ الطريق عن عيني ،
فكيف أسير إلى تلك الوحدة العلوية ؟

— أن وراء هذه الأودية والتلال غابة حبّ
وافقتان ،

وما سكونى لمن فيها سوى عاصفة هوجاء
صمّاء ،

وما افتتاني لعاشقيها سوى انخداع وغرور .
إننى جدت مضطرب هائم بعد فكيف أبلغ تلك
الغابة القدسية ؟

فإن طعم الدماء لا يزال فى فمى ،
وقوس أبى ونشابه ما برحا فى يدى ،
فكيف أسير إلى تلك الوحدة العلوية ؟
— إن لى وراء هذه الذات السجينة ذاتاً حرة
طليقة ،

وما أحلامى فى عقيدتها سوى جرب فى
ظلام ،

ومارغائبي تجاه رغائبها سوى قرقرة عظام .
إننى حدثٌ مهانٌ ذليلٌ بعدُ ،
فكيف أكون ذاتى الحرّة الطليقة ؟
أجل ، كيف أكون ذاتى الحرّة الطليقة —
قبل أن أثارُ لنفسي فأذبح جميع ذواتى
المستعبدة ؛

أو قبل أن يصير جميع الناس أحراراً طلقاء ؟
إذ ، كيف تطير أوارقى مترنمةً فوق الريح —
قبل أن تلوى جدورى فى ظلام الأرض ؟
بل ، كيف يحلق نسرٌ روحى طائراً أمام وجه
الشمس —

قبل أن تترك فراخى عشها الذى بنيت لها بعرق
وجهى ؟

اليقظة الأخيرة

فى غلس الليل العميق ، وقد هبَّ النسيمُ مُعطرًا
بأنفاس الفجر الأولى ، نهض السابق — وهو
صدى الصوت الذى لم تسمع به أذنٌ بعد — فترك
مقصورته وصعد إلى سطح بيته . وبعد أن وقف
هنالك طويلاً ينظر إلى المدينة الهاجعة فى سكونية
الليل ، رفع رأسه وكأنما قد تجمعت حواله أرواح
أولئك النائمين المستيقظة ، فتح فاه وخاطبهم
قائلاً :

« يا إخواتى وجيرانى ، ويا أيها الذين يمرُّون
ببابى فى كل يوم . إبنى أودُّ أن أناجيكم فى نومكم

وفى وادى أحلامكم .. أودّ أن أمشي مطلقاً غارياً ؛
فإن ساعات يقظتكم أشد غفلة من نومكم ،
وآذانكم المثقلة بالضجيج قليلة صمّاء .

« لقد أحببتكم كثيراً وفوق الكثير .

« قد أحببت الواحد منكم كما لو كان كلُّكم .

« وأحببتكم جميعكم كما لو كنتم واحداً .

« ففى ربيع قلبى كنت أترنم فى جنانكم ،

« وفى صيف قلبى كنت أحرس بيادركم .

« أجل ، قد أحببتكم جميعكم ، جباركم

وصعلوككم ، أبرصكم وصحيحكم ، وأحببت

من يتلمس منكم سبيله فى الظلام ، كمن يرقص

أيامه على الجبال والآكام .

« أحببتك أيها القوى مع أن آثار حوافرك

الحديدية لاتزال ظاهرةً فى لحمى .

« وأحببتك أيها الضعيف رغم أنك جففت
إيماني وعطلت عليّ صبرى .

« أحببتك أيها الغنى فى حين أن عسلك كان
علقماً فى فمى ؛ وأحببتك أيها الفقير مع أنك
عرفت عارى وفراغ ذات يدى .

« أحببتك أيها الشاعر المقلد الذى يستعير
قيشارة جاره ليضرب عليها بأصابعه العمياء ،
أحببتك كرماء ولطفاً ، وأحببتك أيها العالم الدائب
عمره فى جمع الأكفان الرثة من حقل الخزاف
الممقوت .

« أحببتك أيها الكاهن الجالس فى سكون أمسه
متسائلاً عن مصير غدى ؛

وأحببتك أيها العابد الذى يتخذ له من أشباح
رغائبه آلهة يعبدها .

« أحببتكِ أيتها المرأة المتعطشة وكأسُها
مملوءةٌ أبداً ، لأننى عرفت سرُّكِ ؛
وأحببتكِ أيتها المرأة الساهرة ليايلها مشفقاً
عليكِ .

« أحببتكِ أيها الثرثار قائلاً فى نفسى : « إنَّ
للحياة كثيراً فتقوله » ؛
وأحببتكِ أيها الأبكم قائلاً فى سرى : « حبذا لو
أسمع نطقاً يعبرُ عما فى صمته » .

« أحببتكِ أيها القاضى والناقد ، ولكنكما عندما
رأيتما نى مصلوباً قُلتما : « ما ألطف نرف دمائه من
عروقه ، وما أجمل الخطوط التى ترسمها فى
مسيلها على جلده الناصع » .

« أجل ، أحببتكم جميعكم ، فتاكم
وشيوخكم ،

وأحببت قصبتكم المرتجفة كسنديانتكم
الجبارة الراسخة .

« ولكن وأسفاه ! فإن قلبي الطافح بحبكم قد
حوّل قلوبكم عنى ؛

لأن فى وسعكم أن ترتشفوا خمرة المحبة من
القدح الصغير ، ولكنكم لا تقوون على شربها من
النهر الفياض .

« إنكم تستطيعون أن تسمعوا صوت المحبة
عندما تهمس مُسرّةً فى آذانكم ؛
ولكنكم تصمون آذانكم عندما تصيح المحبة
مهلّلة بأعلى صوتها .

« وعندما رأيتم أننى قد أحببتكم جميعكم على
السواء . تهكمتم قائلين : « ما أسهل انقياد قلبه ،
وما أبعد الفطنة عن مسالكه ! إن محبة هذه محبة

متسوّل جائع ، قد تعود التقاط الفتات ولو كان
جالساً إلى موائد الملوك . بل هي محبة ضعيف
حقير ، لأن القوى لا يحب إلا الأقوياء .
« وعندما رأيتم أننى أحببتكم حباً مفرطاً قلتم :
« إن محبته هذه محبة أعمى لا يميز بين جمال
الواحد وبشاعة الآخر ، بل هي محبة عديم الذوق
الذى يشرب الخل كأنه يشرب الخمر . بل إنما
هي محبة فضولى مدع إذ أى غريب يستطيع أن
يحبنا كأينا وأمننا وأختنا وأخينا ؟ » .
« هذه أقوالكم وغيرها كثير . لأنكم طالما
أشترتم إلى بأصابعكم فى شوارع المدينة
وساحاتها، وقلتم بعضكم لبعض ساخرين :
« بربكم انظروا الصغير الكبير الذى لا يعبأ
بالفصول والسنين ، فهو عند الظهيرة يلاعب

أولادنا بالأكر ، وعند المساء يجالس شيوخنا
مدعياً الحكمة والفهم » .

« أما أنا فكنت أقول فى قلبى : « لا بأس فى
ذلك فإننى سأحبهم أكثر ، نعم أكثر فأكثر . ولكنى
سوف أسدل على محبتى ستاراً من البغض ، وأستر
عطفى بشديد كرهى . وسأثيرقع بيرقع من
حديد ، ولا أسعى وراءهم إلا مسلحاً مدرّعاً » .
« وبعد ذلك ألقيت يداً ثقيلة على روضكم
وجراحكم ، وكما تعصف العاصفة فى الليل
رعدتُ فى آذانكم .

« ومن على السطوح قد أذعتكم للملأ فريسين
مرائين خداعين ، وفقاقيع أرض كاذبة فارغة .
« قد لعنت قاصرى النظر فيكم كما تلعن
الخفافيش العمياء ؛

وشبَّهت الملتصقين بالأرض والأدنياء منكم
بالمناجذ العادمة النفوس .

« أما الفصحاء والبلغاء بينكم فدعوتهم متشعبي
الأسنة ، ودعوتُ الصامت الساكن فيكم متحجّر
القلب والشفيتين ، وقلت في البسيط الساذج :
« إن الأموات لا يملئون الموت » .

« قد حكمت على الساعين وراء المعرفة
البشرية منكم ومن أبنائكم كمجدّفين على الروح
القدس ؛

وحكمت أيضاً على المأخوذِين والمجذوبِين
بحب الأرواح وما وراء الطبيعة ، كمصطادِي
أشباح يرمون شباكهم في مياه راكدة
ولا يصطادون سوى أظلالهم البليدة .

« كذا شهّرتكم بشفتي ، ولكن قلبي والدماء

تنزف منه فكان يدعوكم بأرق الأسماء وأحلاها .
« أجل ، أيها الأصحاب والجيران ، فإن
المحبة قد خاطبتكم مسوقةً بسياط ذاتها ،
والكبرياء قد رقصت أمامكم متعففة بغبار خيبتها
مذبوحة بآلامها ؛

وتعطشى لمحبتكم قد ثار ثائره على السطوح ؛
ولكن محبتي كانت تسألکم صفحاً وهي
راكعة صامتة .

« ولكن إليكم المعجزة يا قوم !
« إن تسترى قد فتح عيونكم ، وبغضى قد أيقظ
قلوبكم .

« والآن فأنتم تحبوننى !
« إنكم لا تحبون سوى السيوف التى تطعن
قلوبكم ، والسهام التى تخرق صدوركم ؛

لأنكم لا تتعزّون إلا بجراحكم ، ولا تسكرون
إلا بخمرة دمائكم .

« وكما يتجمع الفراش حول اللهب ساعياً
وراء حافته ، تجتمعون أنتم في كل يوم إلى
حديقتي ؛ وبوجوه مرتفعة وعيون شاحصة ،
تراقبونني وأنا أمزق نسيج أيامكم فتهامسون فيما
بينكم قائلين :

« إنه يبصر بنور الله ويتكلم كأنبياء المتقدمين ،
فيحسر القناع عن نفوسنا ويحطم أقفال قلوبنا ،
وكما يعرف النسر مسالك الثعالب يعرف هو أيضاً
طرقنا ومسالكنا ،

« بلى ، فإنني بالحقيقة أعرف طرقكم ، ولكن
كما يعرف النسر طرق فراخه . وإنني بمسرة قلب
قد كشفت لكم سرى . ولكنني لحاجة بي إلى

قربكم أنظاھر بالجفاء ، وخوفاً منى على دنوّ قضاء
 محبتكم أقوم على حراسة سدود محبتى .
 وبعد أن فرغ السابق من كلامه غطى وجهه يديه
 وبكى بكاءً مرّاً ؛ لأنه أدرك فى قلبه أن المحبة
 المحتقرة فى عريها لأعظم من المحبة التى تنشأ
 الظفر فى تسترها وتنكرها ؛ وخجل إذ ذاك من ذاته ،
 ثم رفع رأسه بغتة وكأنه أفاق من نوم عميق .
 بسط ذراعيه وقال : « ها قد ولى الليل ، ونحن
 أولادُ الليل يجب أن نموت عندما يأتى الفجر
 متوكئاً على التلال ؛ وستُبْعَثُ من رمادنا محبةٌ
 أقوى من محبتنا ، وستضحك فى نور الشمس
 وستكون خالدةً » .

« انتهى السابق »

رقم الإيداع ١٩١٢ — ٨٥
الترقيم الدولي ٢ — ٠١٤١ — ١.١ — ٩٧٧

